الآداب
٤٤

جانبنا الضعيف

في سورية، لم ينسَ ولن ينسى الدمَ والشهداء والتضحيات الجسامَ التي قدّمها على طريق القضيّة القومية العادلة، قضيّة فلسطين، وهو يرفض أن تكون «إسرائيل» جزءاً من النسيج الجغرافي والأمني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي للوطن العربي، ولا يقبل أن يستقرّ القهرُ والعداونُ والاحتلالُ بدلاءَ شرعيين للحرية والأمن والاستقلال، للعدل والحق والكرامة، على جزء من وطنه التاريخي، وطنِ الآباء والأجداد، إلى أبد الآبدين...».

وشبيهٌ بهذا الموقف ما كان العماد مصطفى طلاس، نائب القائد العام للجيش العربي السوري ووزير الدفاع السوري، قد عبَّر عنه منذ شهور، وذلك في معرض تعليقه الطريف على قصيدة نزار قبّاني «المهرولون» (التي شبّههم بـ«فرقة دبّابات»)... حين أكّد على أن دور المثقّف يتعدّى دور السياسي الذي يضطر أحياناً للمساومة والتفاوض.

وليذكر المفاوضون العرب، هم أيضاً، أنّ السّلام الّذي سيبرمونَه مع «إسرائيل» لن يكُون سلاماً أبديّاً.. بل إنّ بعضَ أنظمتنا نفسها ستعود، عاجلاً أمْ آجلاً، إلى حالةِ الحربِ والعداء مع الكيان الصهيوني، ولوْ لأسبابٍ تتعلّق باحتكارِه لهذه السّوق الاقتصاديّةِ أوْ تلك. وإذّاك فإنّ أنظمتنا لن تَجِدَ، إنْ هي قمعتِ المقاومةَ والمعارَضَةَ الثقافيّة، إلاّ أشباهَ أحزابٍ عميلةٍ تابعة، وإلاّ أشباهَ مثقّفين كتَبَةٍ عاجزين عن تعبئةِ الرأي العامِّ العربيِّ لانعدام مصداقيّتهم انعداماً تامّاً. وستكون الهزيمةُ مضاعفةً، لأنّ الشعبَ المسحوق لن يمشي لقتالِ أعدائه القوميين، وهو مكبّلٌ وذليل... وهذا ما عبَّر عنه الكاتُب السّوريّ نبيل سليمان حين كتب في هذا العدد من **الآداب** الذي بين أيديكم: «إنّ التركيعَ هو السبيلُ الأمثلُ للتّطبيع»!

الجنوب... عال!

الجولان.. عال وعالان!

ولكنّ الحريّةَ أوْ عَدَمَهَا – لا الأرضَ والسيادةَ وحدَهُما – هما اللّذانَ سيعطيان لمقاومتنا في الماضي والحاضر (والمستقبل؟)، بل ولمفاوضتنا في الأزمنة كلّها، طَعْمَ النّصْر الحقيقيّ... أوْ مرارَةَ الهزيمَةِ المقنّعَة!

سماح ادريس

يُطرح هذه الأيامَ في لبنان موضوعُ الإعلام: المسموع والمرئي. والحجّة الظاهرة هي تنظيم الإعلام؛ غيرَ أنّ الخلفيةَ الحقيقية، كما رأتها الغالبيّةُ الساحقة من الصحافيين والمثقّفين، هي شدُّ الخناق على «الفَلَتانَ» الذي مازال لبنان يتمتّع به... وهو فلتان غيرُ مبرّر بالنسبة للمنطقة العربيّة القادمة على «استحقاقات جديدة» كما يزعمون! وعلى لبنان المشاغب، ومركز الثقل التوجيهي، أن يسير – بحسب منطق الدولة – على السراط الممدود، دونَ «عنترية»، ودون «تَرَف» الديموقراطية، و«خزعبلات» الأصوات المتعدّدة (إلا إذا كانت صوتاً لكل طائفة!). ولكنّ الشعب اللبنانيّ، الذي أدمن الحرية ومارسها حتى أصبحت جزءاً من تاريخه وكيانه وسلوكه، أعلن بلسان غالبية صحافييه وأدبائه ومثقّفيه عن رفضه أيَّ ضغط على حريّة تفكيره ومراقبة آرائه. وقد أقرّت هذه الغالبية بأنّ الحريّة قد تشوّه أحياناً، ولكن ذلك لا يبرّر لجمها أو احتواءها كما تبيّت السلطة.

وما يهمّنا، نحن بالذات، هو موضوع المجلاّت الثقافية وهذا الإعلام. فما وجه الربط بينهما؟ هل المقصود هو استيعابُ الثقافة وبوتقتُها في مجال الإعلام؟ وأيّ إعلام؟ هل هو الرسميّ؟ في هذه الحالة تصبح المجلات الثقافية، المنسيّة حتى الآن من اهتمامات الدولة (وبغضّ النظر عن كون هذا «النسيان» عاملاً سلبياً أو إيجابيّاً) إحدى الوسائل الإعلامية التي يستخدمها النظامُ الحاكم؛ وتصبح الثقافةُ إلزاماً مفروضاً وتوجيهاً آتياً من خارج ذاتها. وهذا الإلزام الإجباريّ يتنافى ومفهومَ الثقافة التي هي التزامٌ بالحرية النابعة من الذات، الذات الواعية، التي تستوعب قضايا الفرد والأمّة وتبلورها، مدركةً المسؤوليةَ الكبرى الملقاةَ عليها، كمرآة، وكضمير، وكمراقب، وكمحاسب. لمن؟ ربما لوسائل الإعلام الرسميّة ذاتِها؛ فقد يكون الإعلام الرسمي مُضلِّلاً، وقد يكون ظالماً أو قامعاً، أو هدّاماً، أو

خادماً لمصالح شخصية. وفي هذه الحالة، فإنّ على الثقافة أن تكشف الحقيقة وتلتزم بها. وهنا تقف الثقافة الحُرَّة في وجه الإعلام.

لن أدخل في سجالٍ بين هذين الطرَفيْن؛ فقد أوسعه المثقّفون درساً وتحليلاً: من سارتر إلى أنصار الفنّ للفنّ، فالداعين إلى الأدب الشموليّ، والرافضين كلَّ توجيه. حسبي أن أحكي لكم، هنا، عن إعلام خاصّ مارسناه وكوكبةٌ من أجيال من الكتّاب والشعراء والمنظّرين، في مجلةٍ صدرت عام ١٩٥٣ وماتزال مستمرّة. لقد عاصرتْ مجلّتُنا عشرات المجلات الثقافية، الخاصة منها والرسمية، معظمها غاب... كما غابت معها عدةُ أنظمةٍ، اتّسم معظمها بالبطش والإرهاب وقمع الحريّات. ولقد عانت المجلّة معاناةً كبيرة: فهي فقيرة، رأسُ مالها ما تبيعه للأفراد والجامعات، وراءها مؤسِّسٌ مايزال إلى اليوم يطعمها كما يُطعم أولاده، اندمجتْ حياتُه بوجودها وتعانقا معاً وراحا يكافحان للبقاء والاستمرار. في مثل هذه الحال يتّخذ الإعلام وجهَ الرسالة أو المفهوم: وذلك بالتبشير بالقَنَاعات، وكشف الزيف، في محاولةٍ لبناء عالم أقلّ بشاعة وانهياراً. بل الأصحّ أن نقول إنّ الإعلام هنا يتّخذ وجهين متعانقيْن: وجهاً صوفياً شعرياً حالماً؛ ووجهاً آخر أشبه بسيفٍ حادّ باتر لا يعرف المساومة ولا أنصاف الحلول، لأنّ أقلّ تذبذب يُفْقِدُ هذا الوجه توازنه ويهبط به إلى الحضيض. ذاك أن هذه الرسولية أو الصوفية ليستا نابعتيْن من وحي علويٍّ خارجٍ عن الذات، بل هما نابعتان من الأرض، من غليان ناسها وبؤسهم وعذابهم، من أشواقهم وأحلامهم؛ ومن ذات فردية تستقطب الذوات الجماعية لتنطلق حَنجرةً موحَّدة رغم تنوّع الأوتار وتلوُّنها. هكذا ينطلق إعلامنا من الخاص إلى العامّ، ومن الفرد إلى الجماعة، ومن حلم الفرد إلى أحلام الجماعة.

ولكنّ هذا لا يتأتّى بدون الكفاح والنضال. كلّنا يعلم أيَّ زلزال كمنَ ويكمن تحت أقدامنا، وكم من الدماء سُفِكَتْ، وكم من الأصوات كُتِمَتْ. قوافل من الكتّاب استشهدوا، ولو رحنا نستعرضهم على امتداد أربعة وأربعين عاماً، لسمعنا خطواتهم على صفحات المجلّة ولرأينا بصَمَاتِهم التي تركوها. قالوا كلمتهم ورحلوا. سجّلوا خلودهم ومشوا. وانتقل إعلامهم/ إعلامنا من الكفاح إلى الشهادة... إلى

النقطة الفاصلة بين قول الكلمة والموت على حدِّها، وبين خنقها في الحَنجرة.

هل يبدو الإعلام/ الموت/ الشهادة عملاً عبثياً؟ لا. ذلك أن الموت أو الدعوة إليه ليسا من أجل الموت أو حباً به، وإنّما هما في سبيل الحياة وحباً بالحياة. وهنا يصبح الإعلام في مفهومنا رمزاً جمالياً يسمو بالتوجيه إلى مصاف الكينونة والاستشراف.

حين كان مدير التحرير الجديد، سماح، فتى يافعاً قال لي: «عندما أتسلّم دفّةَ **الآداب**، فإنّ أوّلَ عملٍ سأقوم بهِ هو إقالة سكرتيرة التحرير [يَقْصدني، أنا، أمَّه]». وحين كَبُر وتسلّم الدفة، قال لي: «ابْقيْ إلى جانبنا. فإنّ امرأة رافقتْ رجلاً كلَّ هذه الرحلة الطويلة الشاقّة لَهِيَ جديرة بالبقاء معي!» حقّاً! إنّ من لا يكنّ وفاءً لأهله، لا وفاء سيبديه لقومه.

ولكنني أشفق عليه. فجيله يمرّ بأصعب مراحل التاريخ العربي، ولا أفقَ نيِّراً يوحي بالبزوغ أمام عينيه. صحيح أن جيلنا نحن قد عرف كثيراً من الهزائم؛ ولكنّنا، في المقابل، عرفنا نشوَة النصر والاستقلال ودغدغتنا آمالُ الوحدة التي تحقّقت، ولو لفترة قصيرة، ورفعنا رأسنا، واعتقدنا أن عهد الذلّ قد انتهى... فأيّ أيام تنتظركم، يا ولدي؟

وأعود الآن، وبعد سنوات، لأسبر قول الفتى، سماح، الذي عاشت **الآداب** معه فرداً منّا وعايشها لأستخلص قوله البريء في الرغبة «بإقالتي». لقد كنت، إلى جانب كوني عاملة في المجلة، زوجةً وأمّاً. وفي أحيان كثيرة، وعلى امتداد هذه السنوات الطويلة، كنت أخاف على زوجي وأسرتي. كان الجانبُ الإنسانيّ «الضعيف» فيّ يهيمن على تصميمي وعزمي. ولكن الزوج / المؤسّس كان عنيداً حاداً. وكان الحوار التالي، أو شبيهُهُ، يتردّد بيننا، كلّما سقط شهيدٌ كلمة، أو اعتُقِلَ كاتبٌ، أو صودرتْ مجلّة: «ألا يمكن حَذْف هذه الكلمة، أو إسقاط تلك الجملة، أو تَضْييب ذلك الموقف؟» وكان يجيب: «الحقيقة أولاً. هذه الكلمة هي العَدَدُ كلُّه؛ تلك الجملة هي بيت القصيد؛ ذلك الموقف هو احترام الذات واحترام الآخرين». وكان الفتى يُناصر أباه، ويعزو أيَّ اهتزاز فيه إليّ. وكنتُ، في سرّي، أعترفُ بذلك. وها أنا أعترف به أمامكم الآن.

عايدة مطرجي إدريس